

الأمراض العقلية

أسبابها - أقسامها - تشخيصها

بين المرض الجثماني ومرض العقل:

المرض العقلي هو نقص أو ضعف في العقل، يظهر في نقص أو ضعف في التصرفات أو الأعمال العقلية، أو في عجز النفس عن القيام بوظائفها على الوجه الأكمل، ومن المعروف أن وظائف العقل تنحصر في الإدراك والوجدان والنزوع، فأى شذوذ في ناحية من هذه النواحي يدل على مرض العقل كما بينا فيما سبق.

أما المرض الجثماني فهو ضعف في الجسم ينشأ عن خلل في تكوين أعضائه أو أجهزته، أو عن عطب يلحق هذه الأعضاء أو الأجهزة كلها أو بعضها، فيفس تكوينها الطبيعي، ويجعلها عاجزة عن أداء وظائفها على وجه مرضي.

ولما بين الجسم والعقل عن علاقة نرى أن المرض العقلي يصحبه في الغالب عجز بعض المراكز العصبية العليا عن أداء وظائفها، مع سلامة تكوينها، وعدم إصابتها بطب مادي، وبالعكس؛ فإننا نرى أن إصابة تلك المراكز العصبية العليا التي في الدماغ بعطب مادي يؤدي إلى اضطرابات عقلية وشذوذ في السلوك.

ومن هذا يتبيّن لك - ولو على وجه إجمالي - الفرق بين المرض العقلي والمرض الجثماني.

ومن الأمراض العقلية ما هو يسير هيّن؛ كضعف الذاكرة، وشدة الخوف والتردد، ومنها ما هو وبيل وخيم العاقبة؛ كالصرع والميلانخوليا، والهوس، والحيل والوسوسة، وانقسام الشخصية، والآبوليا (اعتقال الإرادة)، والجنون بأنواعه وفنونه.

لكل مرض عقلي سبب:

كما أن لكل مرض جثماني سبباً أو أكثر، كذلك أصبح من المقرر الآن أن لكل مرض عقلي سبباً أو أكثر، وعلى الرغم من انتشار العلوم والمعارف الخاصة بالعقل ووظائفه وأسباب ضعفه الطبيعية، فإننا نجد بعض الأشخاص حتى المتعلمين لا يزالون يعزّون بعض الأمراض العقلية إلى عوامل خفية أو أسرار غريبة، أو عوامل خارجة عن طبيعة المصاب نفسها؛ فلا تزال فكرة حلول الجن أو الشياطين بالأجسام منتشرة بين العامة، وقد ذكر الدكتور ادورد استرّكز في كتابه (العلاج النفساني) أن مصابة بمرض عقلي قدّمها إليه لمعالجتها بعض أقاربها، وحذروه أن يترك ستائر غرفة المريضة مرفوعة حينما يكتمل ضوء القمر، خشية أن تقع أشعة البدر على المريضة فيزيد مرضها سوءاً، وهذه من بقايا العقيدة التي اعتنقها قدامى البدائيين، ومؤداها أن للمرض العقلي علاقة بضوء القمر: تلك العقيدة التي نشأ عنها تسمية الجنون «Lunacy»، وهذه كلمة مشتقة من كلمة لاتينية هي Lune بمعنى قمر، فهذه العقيدة وما يشبهها من الخرافات

والأوهام هي التي أثبت البحث الحديث خطأها ومخالفتها للواقع، كما أثبت أن نصف الأمراض العقلية - على الأقل - يرجع إلى أسباب عامة لها آثار ظاهرة في جميع الأمراض على اختلاف أنواعها؛ كالتأخرون وغيره من الأمراض الوبائية، والسكر، وتناول المواد المخدرة، واضطراب الهضم، واضطراب الغدد الصماء، وما يحدث في الأعضاء والأجهزة الباطنية من عطب أو خلل.

أسباب الأمراض العقلية:

مما لا يحتفل الشك أن لمعظم الأمراض العقلية إن لم يكن لكلاها أسباباً جسيمة، وأخرى نفسية، كما أن كثيراً من الأمراض الجثمانية يرجع إلى أسباب عقلية؛ ذلك لأن الإنسان ليس إلا وحدة جسمية عقلية؛ فمن الطبيعي أن ما يؤثر فيه يشمل هاتين الناحيتين الجسم والعقل، غير أن الإصابة الجثمانية ترجع في بعض الأحيان الإصابة العقلية فيوصف المرض بأنه عقلي، فإذا وضعنا هذه الحقيقة نصب أعيننا استطعنا أن نعرف السر في اشتراك عوامل أو مؤثرات خاصة في إحداث الأمراض الجثمانية والعقلية معاً.

وفي ضوء هذه الحقيقة نستطيع أن نقسم أسباب الأمراض العقلية إلى مجموعتين أو طائفتين هما:

- (١) الأسباب السابقة أو المعرضة للمرض^(١).
- (٢) الأسباب المثيرة التي ينشأ عنها المرض مباشرة^(٢).

Predisposing Causes. (٨٨)

Exciting Causes. (٨٩)

(أ) الأسباب المعرضة:

إن الأسباب المعرضة - كما يفهم من اسمها - هي التي تجعل الإنسان مهياً للإصابة، معرضاً لها، وهذه تحدث قبل الإصابة بالفعل التي تتوقف على سبب أو أسباب أخرى هي الأسباب المثيرة أو المباشرة، ولتوضيح ذلك نمثل بمرض من الأمراض الجثمانية وهو نيومونيا (مرض يصيب أغشية الرئتين).

فمن الأسباب المعرضة للإصابة بها سوء التغذية، وإدمان السكر، والإسراف في تناول المواد الكحولية، ولكن الإنسان لا يصاب بالمرض بالفعل إلا إذا اتصلت الرئتان بالجراثيم أو الميكروب الذي ينشأ عنه المرض بالفعل عقلية ومن أهم الأسباب المعرضة للأمراض العقلية:

- (١) الوراثة.
- (٢) السن.
- (٣) النوع.
- (٤) العوامل البيئية.
- (٥) المهنة.
- (٦) الإصابة السابقة.

ولنتكلم عن كل من هذه بشيء من التفصيل:

(١) الوراثة: تعد الوراثة من العوامل الهامة التي تجعل الإنسان عرضة للإصابة ببعض الأمراض العقلية، وقد وجد أن ربع عدد المصابين بأمراض عقلية أو ثلثهم أو أكثر في بعض الحالات ينتمون إلى أسر

تشيع فيها الأمراض العقلية أو الاضطرابات العصبية؛ ذلك لأن مرض العقل يرجع في الغالب - كما قلن من قبل - إلى ضعف كامن في الجهاز العصبي، أو إلى فقد الاتزان في تكون هذا الجهاز.

وهنا نحذر القارئ الوقوع في خطأين شاع بين الناس الوقوع فيهما،

وهما:

١- الغلو في التعظيم من شأن الوراثة حتى ينسب إليها ما يجب أن ينسب إلى البيئة من الآثار؛ فمن الواجب فحص الحالة فحصاً دقيقاً، ودراسة تاريخ المريض حتى لا ننسب إلى الوراثة ما ينبغي أن ينسب إلى البيئة، أو العكس.

٢- الاعتقاد بأن المرض العقلي يورث كما هو أو بصفته الخاصة، وهذه عقيدة فاسدة؛ إذ ليس من الضروري أن يكون ابن المعتوه مثلاً معتوهاً، أو ابن المخبول مخبولاً؛ فالذي يورث ليس هو المرض عينه الذي يصاب به الأصل، وإنما هو الاستعداد العصبي العام، أو حالة المجموع العصبي على العموم، فإذا كان الأصل ضعيف الأعصاب ضعفاً مزمنًا، نتيجة لإصابته بمرض عقلي، فمن المرجح أن يكون الفرع ضعيف الأعصاب أيضاً، وأن يصاب بمرض عصبي سواء أكان هو ما أصيب به الأصل أم كان غيره.

وليس من الضروري أن يصاب جميع الفروع بمرض عقلي، أو يكونوا عرضة لإصابات عقلية - إذا كان أصلهم قد أصيب بذلك؛ فالمشاهد أن كثيراً من أفراد الأسرة الواحدة ينجون من خطر الإصابة التي حدثت

لغيرهم من أفرادها.

(٢) السن: من الممكن أن نقول إن الفرد والأمة في هذا الصدد متشابهون، فالدولة تولد صغيرة، ثم تنمو شيئاً فشيئاً؛ فإذا صمدت للعواصف التي تحيط بها في حياتها، وخرجت من المحن سالمة إبان شبابها، فمن المرجح أن تبقى قوية سليمة في عهد رجولتها، حتى إذا ما بلغت القمة كانت عرضة للتدهور، وقد تبقى قوية سليمة دهرًا طويلًا أو قرونًا متعددة، ولكن دروس التاريخ تعلمنا أن لكل زمان دولة ورجالًا، وتتوقف مدى القوة والسلطان على أحوال الدولة والأسس التي قام عليها بناؤها؛ فكلما قوى الأساس وصلب البناء طال أمد الدولة، ولكن أعاصير الزمن وصروف الدهر لا تفتأ تضعع من كيانها، وتضعف من شأنها، حتى يأتي يوم تدرك فيه عصر الشيخوخة فيلحقها الفناء.

وهذا عينه هو شأن الفرد من بني الإنسان، فهو يولد كاملاً سليماً ولكنه صغير ضعيف في حاجة إلى العناية والرعاية خشية أن يقع فريسة للأمراض الجسمية أو العقلية، فإذا جاوز عصر الطفولة سليماً معافى، وقاوم أخطار المراهقة بنجاح، وصمد لأحداث البلوغ ومشكلاته العقلية، وثوراته النفسية - بشجاعة، ثم ثبت لتجارب الحياة، وتصرف نحوها تصرفاً حازماً سليماً متنزلاً - أقول إذا تم للفرد ذلك كان من المرجح أن يعيش في العصور التالية في مأمن من الأمراض العقلية والصدمات النفسية الضعيفة. وقد دلت التجارب على أن السنوات الخمس الأولى من حياة الطفل

محوطة بكثير من الأخطار؛ إذ فيها تبذر بذور الشخصية، وقد تنبت فيها أصول أمراض عقلية لا تظهر آثارها إلا في عهد الكبر، ومن الثابت أن عصر المراهقة والبلوغ وما بعده بقليل من السنين أخطر أدوار الحياة العقلية؛ إذ فيه تعظم نسبة الإصابة بالأمراض العقلية، وبخاصة جنون المراهقة **Schizophrenia**، ولما تؤذن شمس الحياة بالمغيب، وتغلب جيوش الشباب جيوش المشيب، ويبلغ الإنسان من الكبر عتياً، يصير المرء عرضة لضعف الجسم والعقل، وقد يدركه الخبل إذا امتد به الأجل، فيرد إلى أرذل العمر؛ لكيلا يعلم بعد علم شيئاً.

وكما تعترض الأمة في حياتها أزمات اتفاقية ترهق قوتها، ومشكلات عويصة تفت في عضدها؛ كالأزمات السياسية والاقتصادية - فكذاك تعترض الفرد في عصور مختلفة من حياته أزمات اقتصادية، تترتب عليها أزمات انفعالية نفسية، تضعف كيان عقله، وتزلزل أركان نفسه، وقد تؤدي بحياته في لحظة، فيصبح كأنه لم يكن.

فسنّ الشخص له تأثير كبير في حياته، ومن الواجب الاعتداد به عند البحث عن سبب المرض، وعند تشخيصه، وعند علاجه.

(٣) النوع: إن نوع الشخص في ذاته أي كونه ذكراً أو أنثى ليس له تأثير في الاستعداد للمرض العقلي، ولا في حدوثه بالفعل، ولا في الحصانة العقلية، ومع ذلك فهناك أوقات معينة تكثر فيها إصابة النساء بالأمراض العقلية، أو يشتد فيها تأثرهن العصبي؛ كمدة الحمل، ودور المراهقة والبلوغ، حيث يبلغ النمو الجسمي مداه، وحيث تحدث

الانقلابات الانفعالية والوظيفية.

(٤) العوامل البيئية: هذه العوامل إما عامة وإما خاصة:

فالعامّة هي التي تؤثر في الفرد باعتباره فرداً من أفراد أمة أو شعب، أو أي مجموعة من الناس، خاضعة لظروف معينة عامة؛ فالحياة في المدن - بما يكثر فيها من جلبة أو ضوضاء - خليقة بأن تؤثر في الأعصاب، وتجعل الإنسان عرضة للإصابة بالأمراض العقلية، والحرب وما تنطوي عليه من أخطار ومغامرات وأهوال - جديرة بأن تزلزل الأعصاب، وتعز كيان النفس؛ سواء بالنسبة للجنود الذين يخوضون غمار الحرب ويقاسون وبلاؤها بالفعل، وبالنسبة للمدنيين الذين يستولى عليهم الخوف ويحيط بهم الذعر، فيحرمهم النوم الهادئ، ويوقعهم في حيرة من أمرهم، واضطراب في شئونهم، فتوالي هذه الاضطرابات العصبية، وتكرار تلك المخاوف والأهوال والأوهام - كثيراً ما جعل الجنود وغيرهم عرضة للجنون، أو ذهب بحياتهم العقلية بالفعل.

وهذا من نتائج الحياة الحضرة: حياة الحضارة والتنافس والضوضاء والبغضاء؛ ولذا يقول: إن المرض العقلي هو مرض المدنية والحضارة؛ يدل على ذلك قلة الأمراض العقلية بين القبائل والشعوب المتأخرة في الحضارة، وكثرتها بين سكان المدن والمدنيين المستمتعين بأكبر قسط من مظاهر الحياة المدنية الحديثة.

ومن المحقق أن العلاقات الاجتماعية الكثيرة، والواجبات المدنية، التي تفرضها على الناس ظروف الحضارة - من أشد العوامل تأثيراً في الحياة

العقلية، ومن المحقق أيضاً أن كثيراً من الأمراض العقلية ينشأ في الغالب عن عجز أو نقص في انسجام الفرد مع بيئته الاجتماعية، أو عن ضعف في تهيئه لمقاومة ظروف هذه البيئة، وتلبية طلباتها، والقيام بما تفرضه عليه من واجبات.

ولا ينبغي أن يستنبط من هذا أن حياة المدنية السائرة في طريق نموها على أسس قوية تعد في ذاتها من الأسباب المعرضة لضعف العقل والمرض العقلي؛ فالغرض أن من ينشئون في أحضان المدنية، وتتكون لديهم استعدادات متنوعة مركبة متشابكة، وتُفرض عليهم واجبات متزايدة متشابكة أيضاً - يكونون أكثر تعرضاً للاضطرابات العصبية والأمراض العقلية من أولئك الذين ينشئون في أحضان البداوة والتشرف، فيكون تفكيرهم محدوداً، وتكون الواجبات التي تفرضها عليهم بيئتهم محدودة كذلك، مثل هؤلاء وأولئك كممثل الآلة الميكانيكية؛ إذ كلما كثرت أجزاء الآلة، وتعددت أجهزتها، وتنوعت وظائفها، وتعاونت الأجهزة بعضها مع بعض على أداء الوظيفة الأساسية للآلة، كانت أكثر تعرضاً للعطب والفساد من آلة ساذجة قليلة الأجزاء محدودة الوظيفة.

والشاهد أن أوساط الناس الذي يمثلون في المجتمع المتمدن منزلة بين المنزلتين، ويسلكون في الحياة مسلكاً وسطاً - هم أقل طوائف المجتمع تعرضاً لأخطار الأمراض العقلية، أما من يمثلون المنزلة الدنيا في المجتمع، وهم أشد أفرادهم فقراً، فهم أشد الطبقات تعرضاً لأمراض العقل؛ لأن فقرهم يحملهم على أن يجهدوا أنفسهم في سبيل الحصول على أقواتهم، وأن يخضعوا لظروف قاسية منها: نقص التغذية المقومة للصحة، والميل إلى

تناول المواد المخدرة، والعيش في بيئات لا هي صحية ولا هي خلقية.

ونجد كثيراً من مرضى العقول في الطرف الأعلى بين أفراد الطبقات الراقية الذين يعيشون عيشة سهلة لينة؛ ويعملون من الأعمال ما لا يستدعي تفكيراً ويميلون إلى الانغماس في الملذات والشهوات، لا هم لهم إلا العناية بقضاء رغباتهم الخاصة، وإشباع نهمهم الحيواني.

أما العوامل البيئية الخاصة: فأهم من العوامل العامة (١) لما لها من بالغ الأثر في حياة الفرد والعقلية و(٢) لأنه من الممكن إلى حد كبير جداً تجنبها، وتكاد هذه تنحصر في فشلنا في إخراج أطفال مزودين بقسط مقبول من الصحة العقلية والاتزان الوجداني معاً، ومن مظاهر ذلك الفشل:

(١) عدم نجاحنا في معاونة الأطفال على التحرر من سلطان الآباء والأمهات.

(٢) القسوة في تأديب الأطفال والشدة عليهم بدون مسوغ.

(٣) تدليل الأطفال والاستسلام لرغباتهم استسلاماً تاماً.

(٤) الإهمال في التربية الجنسية إهمالاً ترتب عليه انغماس الشبان في الأحلام الجنسية، وفشلهم في إعداد أنفسهم لحياة جنسية طيبة طاهرة.

(٥) الصراع الدائم بين الوالدين على مرأى ومسمع من أولادهم.

ومن المحقق أن لهذه العوامل البيئية الخاصة وما يشبهها آثاراً بليغة في

حياة الأطفال العقلية، حتى بعد أن يصيروا رجالاً ونساء، فمن الخطأ أن ننظر إليها شزراً، ولا نعيدها أكبر قسط من عنايتنا.

(٥) المهنة: قد يكون للمهنة التي يتولاها الفرد أثر مباشر أو غير مباشر في إصابته بمرض عقلي؛ فالمهن المختلفة التي لها علاقة بالمواد الكيماوية قد كثرت وتنوعت، وأدى انتشارها إلى كثرة المواد السامة المعدنية أو السائلة أو الغازية، التي تتأثر بها أجهزة العمال العصبية، وتؤدي إلى إصابتهم بأمراض جثمانية أو عقلية، ونذكر من بين هذه المواد السامة الرصاص الذي يؤثر في الأعصاب، ويضعف العقل.

ومن المهن المعرضة للإصابات العقلية العمل في الحانات، والملاحة البحرية، والطب، وهذه المهن في ذاتها لا تجعل المرء عرضة للإصابات العقلية، ولكنها مغرية تدفع أصحابها إلى تناول المواد المضرة بالعقل؛ فالعامل في الحانة قد تدفعه ظروفه الخاصة إلى تذوق ما يقدمه للناس من المواد الكحولية، والملاح قد يغيره بعده عن وطنه بالتجرد من قيود التعفف فينغمس في حمأة الرذيلة، والطبيب قد يغيره الإلف، وتدعوه التجارب، ويحملة التعب على أن يتناول شيئاً من العقاقير الطبية المضرة التي يصفها للمرضى.

هذا وقد دل البحث على خطأ من يقولون إن تناول الأعمال الشاقة المتعبة من عوامل التعرض للمرض العقلي؛ فالواقع أن العمل الشاق لا يكون من الأسباب المعرضة للأمراض العقلية إلا إذا صحبه قلق نفسي، أو حرص شديد، أو تفكير زائد على الحد المعقول في المستقبل، وما يكنه من

احتمالات؛ فإن هذه قد تحمل المرء على أن يغلو في إجهاد نفسه، ويتعود عادات فكرية غير صحية، ويتناول أعمالاً لا طاقة له بها، فيؤدي ذلك إلى انحلال قواه الجسمية والعقلية، ويكون كالمبت الذي لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى.

(٦) الإصابة السابقة: إن مثل الأمراض العقلية في ذلك مثل الأمراض الجثمانية، فكما أن الإصابة الجسمية مرة يسهل سبيل الإصابة بها مرة ثانية كأمراض القلب، فكذلك الإصابة بمرض عقلي، فقد تجعل المرء عرضة للإصابة بها مرة أخرى، وكما أن من الأمراض الجثمانية التي تحدث في دور الطفولة ما يكسب الجسم مناعة وحصانة فلا يصاب به مرة أخرى؛ كبعض الحميات والجدري، فكذلك بعض الأمراض العقلية التي تكسب العقل مناعة فلا يصاب بها مرة أخرى إلا في حالات نادرة.

هذه أهم الأسباب المعرضة للأمراض العقلية، ومن الواجب أن يعتدّ بها: (١) عند تشخيص المرض و(٢) عند معرفة سببه المباشر و(٣) عند العلاج، وهذه في الواقع أمور مترابطة يتصل بعضها ببعض اتصالاً وثيقاً، فمن عرض المرض وأدرك سببه سهل عليه علاجاً مرضياً.

ونحن إذا درسنا حياة كل فرد في ضوء هذه الأسباب وجدنا أنه لا يكاد أحد ينجو من التأثير بسبب منها أو أكثر، وعلى هذا نكون جميعاً تقريباً عرضة للإصابة بأمراض عقلية، وهذا حق لا ريب فيه؛ غير أن السواد الأعظم من الناس تشتد فيهم القدرة على المقاومة، فتتغلب على

الأسباب المعرضة للمرض.

ونوجه نظر القارئ مرة أخرى إلى أن يعلم أن أي سبب مُعَرِّض - مهما يبلغ من القوة والسلطان - لا يكفي مجرد وجوده لإحداث المرض بالفعل، بل لا بد أن يضاف إلى ذلك سبب أو أكثر من الأسباب المثيرة أو المباشرة، التي هي القوى الفعالة المسؤولة مباشرة عن ظهور أعراض المرض، وهي التي نحدثك عنها الآن:

(ب) الأسباب المثيرة أو المباشرة:

نعني بهذه الأسباب التي تحدث الأمراض العقلية، أو تعد مسؤولة عن حدوثها بصفة مباشرة، ولذا تسمى: «بالأسباب المثيرة Exciting Causes»، وهي بالطبع أهم من الأسباب المعرضة؛ إذ بدونها لا توجد الأمراض، ولكنها من حيث الترتيب الزمني متأخرة عن الأسباب المعرضة كما هو ظاهر.

وتوصف هذه الأسباب بأنها نفسية جثمانية؛ أي أنها مزيج من عناصر جثمانية وعقلية، فليست عقلية بحتة، ولا جثمانية بحتة، غير أن بعضها يغلب عليه الصبغة الجثمانية، والبعض الآخر يغلب فيه التأثير النفسي أو العقلي، وكلمة «يغلب» هنا ضرورية في الحالين؛ إذ لو قلنا بأن من الأسباب ما هو جثمي بحت، وما هو عقلي بحت، لكان ذلك منافياً للحقيقة المقررة، وهي أن الإنسان وحدة متماسكة لا تنقسم إلى جسم وعقل، ولكنها مزيج من جسم وعقل، فما يؤثر فيه لا بد أن يكون كذلك؛ إذ من الثابت أن المؤثر لا بد أن يكون ملائماً للأثر، أي أن السبب

والمسبب لا بد أن يكونا متجانسين.

فالحمى مثلاً من الأسباب المباشرة لبعض الأمراض العقلية، ولكننا نجد بالبحث أنها تؤثر في الجسم أكثر مما تؤثر في العقل؛ أي أن آثارها الجسمية أقوى من آثارها العقلية؛ إذ هي تؤثر أولاً وقيل كل شيء في الأغشية الجسمية، وتؤثر بصفة ثانوية في الشعور فيضطرب، وقد يعترض الإنسان نوع من الخيل والهذيان، يصحبه - في كثير من الأحيان - ثورة انفعالية قوية هي التي نسميها «ثورة المحموم»، فالحمى سبب جثماني عقلي، ولكن يغلب فيه التأثير الجثماني.

وقلق النفس من الأسباب العقلية والجثمانية المثيرة للمرض العقلي التي يغلب فيها التأثير العقلي؛ أي أن مظاهر عقلية أكثر من أن تكون جثمانية، فالقلق لا يستطيع أن يضبط نفسه أو يحصر ذهنه، أو يفكر تفكيراً سليماً، ولكنه مع ذلك يتأثر تأثيراً جثمانياً يظهر في امتقاع اللون، وعنف النبض في الأوعية الدموية التي بالعنق، وسرعة التنفس مع خفته، إلى غير ذلك من المظاهر التي يراها الإنسان واضحة جلية فيمن يعتره القلق النفسي الشديد؛ كما هي الحال فيمن يقف موقفاً خطاياً محرّجاً، وحال من يشفق على مريض في حالة خطيرة، أو من يتربح أخباراً عن غائب.

في ضوء هذا التمهيد نذكر من بين الأسباب التي يغلب فيها التأثير

الجثماني:

(١) الحمى وغيرها من الأمراض المعدية الحادة.

- (٢) التعب الشديد الذي يصل إلى درجة الإعياء.
- (٣) تخدر الأعصاب بتناول المواد والعقاقير المخدرة.
- (٤) تخدر الجهاز العصبي وغيره من الأجهزة الباطنية؛ فهذا قد يؤدي إلى اضطراب عملية الهضم، وامتصاص الطعام الضروري لتقوية الدم وتغذية أنسجة الجسم، وأغشيته المختلفة؛ وكثيراً ما يؤدي اضطراب عملية الهضم إلى اضطراب الأعصاب ومرض العقل.
- (٥) التسمم المزمن الناشئ عن بعض الأمراض الحادة؛ كالسل، والأنيميا، ومرض السكر، فهذه وما يشبهها إذا عاناه المريض مدة طويلة فسممت جسمه، واضطرتته إلى أن يقلل من نشاطه الحيوي - قد تكون من الأسباب المباشرة للسلوك العقلي الشاذ.
- (٦) الأمراض العصبية الحادة المزمنة التي تؤثر في المخ تأثيراً مباشراً، فتضعف العقل أو تؤدي إلى أمراض عقلية وبيلة، لما بين المخ والتفكير من علاقة وثيقة.
- (٧) التقرح الباطني وخصوصاً في منطقة الدماغ، فهذا قد يؤثر في المخ في دور الطفولة أو ما بعده، فينشأ عنه شذوذ في السلوك العقلي.
- (٨) ضرب الشمس الحادة؛ فهذه قد ينشأ عنها اضطراب مستمر في توزيع الحرارة على الجسم، وثورة انفعالية يطول أمدها، وهذا وذاك مما يؤدي إلى فقد الاتزان العقلي.
- هذا عرض موجز للأسباب المباشرة التي يغلب عليها التأثير الجشمانى،

ومن أراد مزيد بيان، فليرجع إلى كتب الطب الجثمانى، فليس مما يعيننا كثيراً عرضها عرضاً تفصيلاً مسهباً.

الأسباب المباشرة التي يغلب فيها التأثير العقلى.

وتمتاز الأسباب التي ذكرناها آنفاً بأن آثارها مادية، يسهل فيكثير من الحالات على الطبيب الماهر تعرفها وتعيينها بالفحص الدقيق، أما الأسباب التي يغلب فيها التأثير العقلى، فلكونها عقلية نفسانية أكثر من أن تكون جثمانية مادية، نجد من الصعب تعرفها وتحديدتها؛ فقد يحتاج ذلك إلى بحث طويل، وتتبع حياة المريض في أدوارها المختلفة، وبخاصة في دور الطفولة الأولى، الذي أثبتت التجارب أن كثيراً من الأمراض العقلية والعقد النفسية تبذر فيه بذورها. ولا تستطيع تعرفها وتحديدتها على وجه مرضي إلا العالم النفساني الخبير، الملم بطرائق العلاج النفساني المختلفة.

ولما كان معظم هذه الأسباب يرجع في النهاية إلى اضطرابات وجدانية أو انفعالية، كان لزاماً علينا أن نتكلم بشيء من التفصيل والإسهاب عن الانفعالات وتأثيرها في الحياة العقلية فنقول:

إن الانفعالات على اختلافها ضرورية لتكوين الشخصية، ولا بد منها للاحتفاظ بحياة عقلية عادية متزنة، مثلها في ذلك مثل القلب الذي إذا صلح صلح الجسد كله، وإذا فسد فسد الجسد كله، والذي لا بد منه لتموين الجسم، وللاحتفاظ بحياة جسمية عادية منسجمة.

فإذا توقفت الانفعالات عن العمل، ولم يظهر لها أثر في حياة الإنسان - كما في بعض حالات الشيخوخة، والحمود العقلى - تبع ذلك

توقف العقل عن العمل، أو - على الأقل - فسدت الحياة العقلية، واعتراها شيء من الجمود والجمود.

فكما أن عجز القلب عن أداء وظائفه يؤدي إلى موت الجسم، فكذلك عجز الانفعال عن أداء وظائفه يؤدي إلى موت العقل، أو - على الأقل - إلى فساد الحياة العقلية وحمودها، ولذا يقال: «إن الانفعال هو قلب العقل».

ولا غرو؛ فكل انفعال قوة دافعة فعالة، عميقة التأثير في السلوك الإنساني والإحساس الفني والشعور الأدبي؛ فلولا الانفعالات ما استطاع المصور أن يصنع صورة تحلب الألباب، ولا استطاع المثال أن يصنع من الرخام أو المرمر تمثالاً تهوى إليه الأفتدة، ولا قدر الشاعر أن يصوغ من الألفاظ والعبارات قصيدة تلهب الخيال وتوقظ العاطفة، ولا أمكن الكاتب أن يصدر قصة تهز المشاعر وتلعب بالألباب، ولا قدر الموسيقار أن يؤلف بين الأصوات والنغمات، فيخرج منها ألحاناً شجية تطرب الأسماع وتهز أوتار القلوب.

فإذا كان الخيال هو مصدر الفن، فإن الانفعال هو السراج الوهاج الذي يضيء جوانب الخيال، أو هو الشعلة الموقدة التي تلهب نار الخيال وتبهر له طريق الإنتاج.

وليس من باب المغالاة أن نقول إن الانفعالات هي الدوافع الحيوية التي تصدر عنها أعمال الإنسان وأحكامه، دون شعور منه في كثير من الحالات، ومن المؤكد أنها هي وحدها المسيطرة على حياة الطفل، وإنك لو

حللت اعمال الجماهير لوجدت أنها ترجع في النهاية إلى الثورات الانفعالية، التي هي مصدر الثورات الاجتماعية، ومثيرات الحروب الطاحنة، وهي التي بسببها يفقد الملوك تيجانهم وعروشهم، بل رءوسهم، وإذا كان بعض الساسة ينجحون في سياستهم بتفكيرهم وذكائهم فذلك قليل نادر؛ إذ أن الغالب ألا ينجح الزعيم في حياته إلا إذا كان متوقد العاطفة قوى الشعور الوجداني، وإن الحضارة التي تقوم على التفكير المحض المجرد من التأثير العاطفي قلما تبقى طويلاً، وإن بقيت أعوزها التقدم والرفي.

ومن البديهي أن القوة الانفعالية قد توجه الإنسان إلى الخير، وقد توجهه إلى الشر، وأن السلوك الناشئ عنها - سواء بالنسبة للفرد، وبالنسبة للأمة - قد يكون نافعاً وقد يكون خطراً مضراً؛ فثورة انفعالية قوية قد تزلزل العقل وتهد كيانه، وثورة انفعالية حادة جامحة قد تؤدي بالأمة، وتوردها موارد الهلاك، وتجلب لها الخراب والدمار، أو الذل والعار.

ولا سبيل إلى السلوك القويم إلا بتحكيم العقل، وضبط الانفعالات الطائشة، وتوجيهها للتوجيه السليم، ومع أن ذلك سهل ميسر، فكثيراً ما يسبق السيف العذل، ويندفع الإنسان في تيار الثورة، ويسرع إلى العمل قبل أن يحكم عقله، ويفكر في عواقب فعله.

ومع هذا فمن الممكن - بالتدريب والتعود - أن يكتسب الإنسان فضيلة ضبط النفس وكظم الغيظ، وأن يكون سيِّداً لانفعالاته، قابضاً على أزمته، لا عبداً لها خاضعاً لسلطانها؛ فإن الاستسلام للانفعالات،

والخضوع لسلطانها من صفات الطفل البارزة، التي لا ينبغي للبالغ الرشيد أن يتصف بها.

ولو استطاع كل فرد أن ينجح في تهذيب انفعالاته، وتحكيم فكره في وجدانه - إلى حد ما - ما أصاب العالم ما أصابه من نكبات متواليات، ولتقدم النوع الإنساني بخطى واسعة في سبيل السلم والسعادة، ولقل ما تعانيه البشرية الآن من أنواع الذل وألوان الشقاء، بل لقلت الأمراض العقلية إلى أقصى حد، وسلم الإنسان من كثير من الأمراض العقلية الويلة.

نريد بعد هذا أن نعرض بعض حقائق لها علاقة بالانفعالات، ولها آثار ظاهرة في حياة الجسم والعقل معاً، فمن هذه الحقائق:

(١) أن أي نزعة انفعالية مهما تبلغ من الضعف تترك وراءها، أو تصحبها، آثار جثمانية ملائمة لها قوة وضعفها، وهذا هو ما يسمى بالأثر الجثماني للانفعال.

(٢) أن الآثار الجثمانية - إذا استمرت قوية - تزيد في قوة الانفعال، وذلك كما في حال الانفعال الحاد الثائر، مثل الغضب الشديد الذي تصحبه ثورة جثمانية شاملة لجميع أجهزة الجسم تقريباً، فالغضب يثير الجسم، وثورة الجسم تقوي الغضب، وهكذا، فيظل الإنسان لعبة في أيدي أجهزته الجسمية من جهة، وأبدى انفعالاته من جهة أخرى حتى تهدأ نائرة الغضب، أو تستنزف قوى الجسم، فيعتبره خمود وهمود قد يخدم معه الانفعال نفسه، وهذا هو ما يسمى بالتأثير الجثماني في

الانفعال.

(٣) أن العقل الإنساني مزود بقوة احتمال عظيمة يستطيع معها أن يحتمل النزوات الانفعالية القوية، ويصمد لها مدة طويلة، ولكنه مع ذلك قد يضعف أمام الانفعالات الضعيفة التي تبقى مدة تقلقه، وتستنفد نشاطه بالتدرج، وإن توالي ثورة هذه الانفعالات الضعيفة الطويلة الأجل قد يضعف العقل، ويوهن قدرته على الاحتمال، فيكون عرضة للانحزام أمام أي ثورة انفعالية حادة، وإن قصر أجلها، فالانفعالات الضعيفة الطويلة الأجل أشد تأثيراً في العقل من الانفعالات الحادة الوقتية.

(٤) أن قوى النفس البشرية ونزعاتها الانفعالية، يعوزها في الغالب الانسجام والتوافق؛ وذلك راجع إلى اختلاف النزعات الغريزية وتضاربها في الاتجاه؛ فالغرائز الفردية قد تعارض الغرائز الاجتماعية، وغريزة حب الظهور قد تعارض غريزة حب الخضوع، وغريزة حب التملك قد تعارض الغريزة الاجتماعية وهكذا، وقد ينشأ من تضارب هذه الميول تفكك في الشخصية؛ فإن التضارب العقلي لا يستمر دائماً أبداً مقلقاً للنفس مهدداً لكيانها، فإما أن يتم التوافق بين الرغبات المتخالفة، فتتآلف بالطريق العادي، وتنحل العقدة، وإما أن يشتد النزاع، ويستعصي التوفيق فتتال بعض الرغبات مآربها على حساب الحياة العقلية، فيختل ميزان العقل والجسم، وتنشأ الأمراض العقلية أو الجسمية.

ومن الأمراض الناشئة عن هذا الصراع ما أصاب الجنود الذين عانوا
وبيلات الحرب الأوروبية الأولى، وصعقتهم قنابلها، وأزعجهم قصف
مدافعها، فكان هذا وذلك سببًا في أن فريقًا منهم أصبحوا ولهم أعين لا
يرون بها، وفريقًا آخر أمسوا ولهم آذان لا يسمعون بها، وفريقًا ثالثًا
صاروا ولهم أنوف لا يشمون بها، وكان ذلك بمثابة دفاع النفس عن كيانها،
وحل الصراع بين غريزة الدفاع عن النفس والميل إلى الشجاعة والقيام
بالواجب في ميادين القتال؛ ففقد البصر يجنب النفس رؤية المناظر
الوحشية المؤلمة، وفقد السمع يجنبها سمع دوي المدافع والقنابل، وفقد
الشم يحول بينها وبين شم الروائح الكريهة المنبعثة من جثث القتلى التي
تبقى في الخنادق أو في العراء مدة طويلة؛ إذ لم يكن من الممكن دفنها.

وليس هذا الحل المؤلم للصراع النفساني بمقصود على الحياة غير
العادية، كحياة الجنود في ميادين القتال، بل إنه قد يحدث في الأحوال
العادية؛ فكثيرًا ما يصاب الرجل أو المرأة بأمراض جثمانية، أو عقلية -
نتيجة لعدم النجاح في مصارعة ظروف الحياة وتقلباتها، وذلك كما في حال
من يخفقون في الحب أو في الزواج، أو من يفشلون في الحصول على مآربهم
الشخصية؛ من مناصب اجتماعية، أو درجات مالية، أو زعامة سياسية، أو
من يجزعون جزعًا شديدًا لموت قريب أو حبيب، أو من يتألمون لتدنس
شرفهم، وتلوث سمعتهم.

كل هذه وغيرها من متاعب الحياة التي لا حد لها، تسبب للإنسان
القلق النفسي، الذي إذا طال عليه الأمد أو هُنَّ قدرة العقل على المقاومة،
وانتهى أمره باضطراب الشخصية وغيره من الأمراض العقلية.

ولا يفوتنا أن نذكر هنا ما لكبت الانفعالات، وسوء معاملة الأطفال، والحجر على حريتهم في دور الطفولة من آثار سيئة في الحياة العقلية في عهد الكبر؛ ذلك لأن كبت الانفعالات وعدم التنفيس عنها في الصغر قد يؤدي إلى تكون العقد النفسية، التي تبقى كامنة في النفس، إلى أن تظهر آثارها في عهد الكبر في توجيه السلوك توجيهًا شاذًا، أو في الإصابة بأمراض عصبية أو عقلية وخيمة العاقبة.

تفسير الأمراض العقلية:

إن خير أساس تتخذه لتقسيم الأمراض العقلية هو السبب الرئيس الذي ينشأ عنه المرض، فعلى هذا الأساس تنقسم الأمراض العقلية ثلاثة أقسام هي:

(١) الأمراض العضوية: وهي التي ترجع إلى خلل في تكوين المخ وأنسجته وأوعيته، مثال ذلك: الأمراض العقلية التي تنشأ عن الشيخوخة أو الشلل الجزئي.

(٢) الأمراض الوظيفية: وهي التي يصحبها عجز عضو من الأعضاء عن القيام بوظيفته مع وجود خلل فيه، مثال ذلك: الجنون بصوره المختلفة، ومنها جنون المراهقة والهوس، والصرع، والخوربا، والميلانخوليا.

(٣) الأمراض التسممية: وهي التي يصحبها تسمم في بعض أعضاء الجسم، كالأضرار الناشئة عن التسمم بالمواد الكحولية، ولا داعي هنا للإطالة في تعداد هذه الأمراض، وبيان أعراض كل منها، فمن أراد

مزيد بيان في ذلك فليرجع إلى المطولات، فلنكتف بهذا العرض الموجز لأسباب الأمراض العقلية وأقسامها في رأي معظم أطباء العقول في العصر الحاضر، ولننتقل إلى موضع لا يقل أهمية في نظر هؤلاء الأطباء عن العلاج نفسه، ذلك هو:

اختبار المريض وتشخيص مرضه:

لم يعد الطبيب النفساني يكتفي بنظرة سطحية إلى المريض، أو يقنع باختباره هو وحده اختباراً مقصوراً على حالته الحاضرة، بل يرى من الواجب عليه أن يتبين الأمور الآتية، ويدركها تمام الإدراك - قبل الشروع في العلاج، وهي:

- ١) كنه المرض بالضبط.
- ٢) المراحل التي مر بها المرض منذ أن ظهرت أعراضه إلى أن وصل إلى ما وصل إليه الآن.
- ٣) تاريخ حياة المريض بوجه عام، وما عسى أن يكون قد حدث له من أحداث خطيرة أثرت في مجرى حياته العادي بوجه خاص.
- ٤) تاريخ حياة الأسرة التي ينتمي إليها المريض، ومدى شيوع هذا المرض أو ما يشبهه بين أفرادها.

ومن الضروري الا يعتمد الطبيب على المريض وحده في وصف مرضه؛ فقد يدعي أنه سليم معافى؛ وأن حياته العقلية عادية، ولا تشوبها شائبة شذوذ، وأن خطواته في الحياة سديدة موفقة، وأن «تدبيره لقتل

مضطهديه ومعارضيه سائر في طريق النجاح»؛ ولا غرور فالجنون كثيراً ما يعد نفسه من أعقل الناس، وأصحهم تقديراً، وأحزمهم تدبيراً.

وكذلك لا يستطيع المريض أن يسرد تاريخ مرضه سرداً كاملاً مستوفياً؛ لأن الصراحة قد تعوزه، والذاكرة قد تخونه، والخيال قد يلعب دوراً مشوهاً للحقائق.

ومن باب أولى لا يستطيع المريض أن يقص تاريخ حياته منذ نشأته، ولا أن يذكر تاريخ أسرته، ولا أن يبين من أصيب بمرضه منهم ومن لم يصب، فمن الواجب أن يرجع في ذلك كله إلى الأقارب والأصدقاء، المتصلين بالمريض، المتتبعين لتطور مرضه وتقلبات أحواله، العارفين بتاريخ حياته، وتاريخ حياة أسرته؛ فهؤلاء هم أقدر على الوصف الدقيق المبين لما قد يُخفي المريض أو يخفى عليه من أسرار، وما يشذ عن ذاكرته من حوادث.

وإنما كان من الضروري معرفة تاريخ المرض، لأن لكل مرض عقلي تاريخاً معيناً وأدوار خاصة، لا بد من معرفتها لتعيينه بالضبط، ولا يكفي العلم بالأعراض؛ لأن هذه متشابهة في أمراض مختلفة كما في أنواع الميلانخوليا، ومعرفة حياة المريض نفسه في الماضي كثيراً ما تكشف القناع عن سبب المرض، كما في الأمراض الناشئة عن العقد النفسية التي تكونت في عهد الطفولة.

والإلمام بتاريخ الأسرة قد يساعد على تعرف كنه المرض، وبذلك يكون له أثر قيم في المعالجة.

ومن المهم جدًا في فحص حالة المريض النفسية الخاصة العناية
بالمظاهر الآتية:

- (١) مظهر المريض العام، وسلوكه، وطرائق معاملته غيره.
 - (٢) مجرى تفكيره العام، والأفكار التي تتوارد على ذهنه.
 - (٣) مدى ما بين أفكاره من تضارب أو انسجام.
 - (٤) ما لديه من مبادئ أو أفكار تقلق نفسه وتشغل باله.
 - (٥) مدى قدرته على دقة البحث وعمق التفكير، والجد في حل ما يعترضه من مشكلات الحياة.
 - (٦) مدى قدرته على سرعة التلبية أو التأثر بما يحيط به من مؤثرات طبيعية أو اجتماعية، والاستجابة لها.
 - (٧) مسلكه في الحديث وأسلوبه في التخاطب أو المناقشة.
- ويتوقف النجاح في إدراك هذه الأمور تمام الإدراك على مهارة الطبيب المعالج وبعد نظره، ودقته في مراعاة الأسس التي يقوم عليها العلاج النفساني التي نعرضها عليك الآن: